

دور الصلحاء في مواجهة مشكل الخوف لدى المجتمع بين الواقع والكرامة: من خلال المجتمع التادلي في القرنين 16 و17م

لطيفة شراس

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر - أكادير

مقدمة

قام رجال التصوف والصلاح داخل كل وسط من أوساط المجتمع المغربي، وعبر مختلف الفترات التاريخية السابقة بوظائف وأدوار هامة جدا. سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو النفسي والقصد بذلك أساسا تحقيق نوع من الأمن والاطمئنان في نفوس أفراد المجتمع. هذا ما سنحاول إبرازه في هذا المقال متخذين من المجتمع التادلي خلال القرنين 10 و11هـ/16/17 م مثلا على ذلك.

أولا : أسباب معاناة المجتمع التادلي

أ- أسباب لها علاقة بالظروف الطبيعية:

يتميز مناخ المنطقة بشكل عام بسيادة مناخ قاري وجاف، خصوصا في السهول البعيدة عن الدير والجبال، إذ إن حدة طبيعة هذا المناخ تنخفض نسبيا كلما اقتربنا من المرتفعات الجبلية، التي تشكل عنصرا إيجابيا في المنطقة ؛ بتلقيها كميات هامة من التساقطات المائية والثلجية. وبالدير يسهم التقاء السهل بالجبل في تفجر الينابيع الشديدة الارتفاع على شكل عيون تتغذى أساسا من ثلوج الجبال المجاورة.

وهكذا عانى مجتمع تادلا باستمرار من مشكل الجفاف، الذي لا يرتبط فقط بطبيعة

المناخ السائد بالمنطقة، بل يرتبط بأزمات الجفاف الدورية التي كان يعرفها المغرب بشكل عام طيلة القرنين: 16 و 17م. فقد عرف القرن 16م إحدى عشر سنة من الجفاف نذكر منها سنوات: 1511 و 1519 - 1520 و 1540¹.

ولم يكن القرن الموالي أحسن حالا من سابقه، إذ عرف في المجموع سبعا وعشرين سنة من الجفاف². ولعل أخطر جفاف أصاب منطقة تادالا كان في منتصف القرن 17م وبالضبط سنة 1072هـ/1661م. ترتب عنه انتشار مجموعة من الأوبئة ووفاة عدد كبير من الناس، فقد كان يموت في كل يوم ما يزيد على مائة شخص حسب ما جاء في كتاب "الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية أيت عياش" لصاحبه عمر بن عبد الله العياشي³، الذي سجل بتفصيل وقائع هذا الحدث. ونجم عنه كذلك فرار خلق كثير نحو الجنوب الصحراوي الذي كان أقل ضررا مما أدى إلى فراغ ودمار قرى ومدامر كثيرة بالمنطقة.

عانى سكان منطقة تادالا كذلك من مشكل طبيعي آخر، لا يقل خطورة عن سابقه، تمثل في كثرة الحيوانات الضارية في المنطقة وخاصة الأسود، فقد أسهمت شساعة مساحة المنطقة، وقلة عمرانها وامتداد الغطاء الغابوي الكثيف بها في انتشارها ووجودها بشكل كبير في ذلك المجال. فقد نقلت نصوص منقبية عديدة ما كانت تلحقه هذه الوحوش من أضرار بالمنتوجات الزراعية والمواشي، وبما كانت تحدثه من خوف وهلع في أوساط سكان تادالا أو عابري سبيلها كانوا تجارا أو حجاجا، سيما أن المنطقة كانت معبرا رئيسا يربط مناطق شمال البلاد بجنوبها.

¹ Rosemberger et triki, famines et épidémies au Maroc au VI^e XV, in :Hespéris-Tamuda, Vol, XV, 1974 ,P68

² Ibid.

³ عبد الله بن عمر العياشي، الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية أيت عياش، م، خ، ع.ع. بالرباط رقم: 1433 د (مصور عن الميكرو فيلم)، 257.

ب- أسباب مرتبطة بظروف الحياة الاقتصادية و الاجتماعية

تصنف تادالا ضمن المجتمعات القروية، التي تعرف نمطين مختلفين من العيش: سهلي وجبلي، مما فرض سيادة نمطين اقتصاديين مختلفين: زراعي ورعوي ؛ وبالتالي حياة النجعة والترحال باستمرار، بحثا عن التكامل الرعوي بين السهول والجبال المجاورة. وكان بديها أن يطرح هذا النمط من العيش مجموعة من المشاكل والصعوبات تجلت في الصراع حول وسائل الإنتاج من أراضي زراعية وماء ومراعي، ما بين القبائل المستقرة بالجبال وجيرانها المستقرين بالدير. وكانت قبائل بني مقرين على سبيل المثال: هم فرقة من بني زمور المستقرين بواد تمزيرت قرب أي الجعد تتعرض باستمرار لهجومات القبائل الأمازيغية المجاورة¹. كما كانت قبائل الدير المجاورة لمدينة بني ملال تعاني من غارات قبائل أيت يسري المجاورة لهم².

ومارست قبائل أيت عطا فيما بين نهاية ق 17م وبداة ق 18م ضغوطات مختلفة على القبائل الموجودة على طول الممرات الجبلية التي تصل الأطلس المتوسط بالأطلس الكبير كآيت وزود الذين توجد مواطنهم على الضفة اليسرى لواد أحنصال الذي يشكل مع دادس الأعلى ممرا يربط درعة وتادالا ثم فاس. جاء في كتاب الدرّة الجليّة: "أن قبائل أيت أسفول وهم خمس من أيت عطا يأتون لأهل أوزود وينزلون عليهم ويغرمونهم كالخزن ويتجاسرون عليهم تجاسرا وربما ضربوا من امتنع مما كلفوه عليه"³. وتزداد هذه الضغوطات القبلية حدة خلال العهد الذي كان يعرف فيه المغرب أزمة انعدام الاستقرار السياسي.

¹ محمد العبدوني: يتيمة العقود الوسطى، م خ، خ ع بالرباط، رقم 283 ك، 226.

² الحسن الهداجي، الروض الينع، م خ، خ ع بالرباط، رقم 86 ج، 156-157.

³ محمد الخليفتي، الدرّة الجليّة في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، رسالة لنيل (د.د.ع) في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، 1986، (مرفوعة)، 354.

وكان الإنسان التادلي أيضا يعاني داخل المجموعة القبلية نفسها التي ينتمي إليها من التوزيع غير العادل لوسائل الإنتاج، مثل الماء خصوصا بمناطق الدير والسهول وهو ما يتبين من إحدى الفتاوى التي وجهها أحد مرابطي الزاوية الصومعية -الموجودة بالدير التادلي - يدعى محمدا بن عبد الرحمان الصومعي (عاش في نهاية ق 17) إلى : الشيخ محمد بن الحسن اليوسي يتساءل فيها عن كيفية تقسيم مياه العيون المنهمة من الجبال، وعمّا إذا استولى عليها من له جاه وسطوة من غير موجب شرعي هل يسوغ له الانتفاع بها، أم لا؟¹.

ج- أسباب مرتبطة بالظروف السياسية:

عانى المجتمع التادلي طيلة القرنين 16 و 17 الميلاديين من سلسلة من الحروب الدامية التي دارت ما بين الوطاسيين والسعديين، وما بين السعديين والعلويين، بحكم موقع تادلا، وكان نهر أم الربيع دائما الحد الفاصل عند انهيار الدولة المركزية، وانقسام البلاد إلى كتلتين سياسيتين متصارعين: واحدة بفاس وأخرى بمراكش. لذا فقد حرصت كل القوى الناشئة المنطلقة من الجنوب على السيطرة على تادلا، لأنه كان يكفيها أن تنصر في تادلا على القوة المواجهة لئتم إخضاع فاس وسائر أقاليم الشمال.

ولا ترتبط معاناة الإنسان التادلي من تأزم الأوضاع السياسية، بظروف هذه الحروب وبغياب سلطة مركزية قوية فقط، بل إنها تستمر حتى في فترات الاستقرار السياسي، بسبب الأسلوب السياسي الذي نهجه المخزن تجاه تادلا الأمازيغية، المتمثل في عمله على حصرها داخل مواطنها ومنعها من النزول نحو الأراضي الواطئة (ما يسمى بالأزغار). بسبب ما كانت تحدته تلك التحركات القبلية من فوضى واضطرابات، خصوصا أن مجال هذه القبائل كان يخترقه الطريق المخزني الهام الذي يربط فاس ومنطقة

¹ وردت ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط، رقم 3385 د، 262-264.

الغرب بتايفيلات والمناطق الصحراوية. وهكذا فقد تعرضت هذه القبائل عهد المولى اسماعيل على سبيل المثال فيما بين سنتي 1677 و1692م لأربع حملات عسكرية ثلاث منها قادها المولى اسماعيل بنفسه، وصفتها المصادر بأنها كانت قوية وخطيرة¹. لذا فإنه كان من الطبيعي أن يتأثر الإنسان التادلي بعواقب هذه الحملات على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وخصوصا الأمني. كما تضرر المجتمع التادلي أيضا من مجموعة من الممارسات السلطوية المتسمة بالجور والتعسف من ذلك مثلا: السياسة الضرائبية المجحفة التي غالبا ما كانت تصاحبها عمليات السجن وانتزاع الممتلكات بالقوة حالة العجز عن أداء المغارم والوظائف المخزنية². لم يستن من ذلك أصحاب الزوايا أحيانا خاصة زمن القحط والغلاء³. إضافة إلى معاناة بعض القبائل من الترحيل التعسفي إلى مناطق نائية عن تادلا، في إطار سياسة ضبط المنطقة والتحكم في قبائلها سياسيا وعسكريا. مثال على ذلك، فقد قام أحمد المنصور الذهبي بترحيل قبيلة ورديفة التي توجد بضواحي أبي الجعد إلى منطقة الغرب. وإلى ما أسمته المصادر المحلية بعملية "التكساب" أي عملية جمع الحراطين زمن المولى اسماعيل. فقد ادعى المكلفون بتلك العملية على قبيلة بأكملها تدعى "أولاد امبارك" من بني شكدال⁴ بأنهم عبيد، فاضطر جل أفرادها الفرار إلى مدينة مراکش في حين احترم/ لجأ الباقون بالزاوية الشراوية⁵. وتنقل لنا نصوص الكرامات

¹ للمزيد من التفاصيل أنظر أطروحتنا "الحركة الصوفية في منطقة تادلا خلال القرنين 16 و17م"، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، 2004 (مرقونة)، 116-122.

² محمد القادري نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق أحمد التوفيق ومحمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1986، 2/ 44؛ سليمان الحوات، الدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، تقديم وتحقيق عبد الرحمان كطيمي، رسالة لنيل (د.دع) في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب بالرباط، 1992 (مرقونة)، 442/2؛ الحسن الهداجي، الروض الينع، 126-138-139-142-167-186-213...

³ مثل الزاوية الشراوية سنة 1147هـ/1734م، أنظر: محمد العبدوني، يتيمة العقود الوسطى، 247-249.

⁴ فرع من قبيلة بني موسى تقع بضواحي مدينة بني ملال، تبعد عنها بـ10 كلمترات في اتجاه مدينة مراکش.

⁵ الحسن الهداجي، الروض الينع، 155.

وبعض النصوص الاخبارية، صورة قائمة عن الأوضاع الاجتماعية بتنادلا بعد وفاة المولى اسماعيل، بسبب انعدام الأمن وبطش عبيد السلطان وانتشار ظاهرة اللصوصية وغيرها من الظواهر التي عانى منها الفرد التادلي مثله في ذلك مثل باقي أفراد المجتمع المغربي خلال هذه الأزمة¹. وهكذا، أن معاناة التادليين كانت دائمة، إذ إن الفرق بين عهد الوحدة السياسية وعهد التمزق بالنسبة إليهم لم يكن ذا أهمية؛ مادامت السلطة التي كانت تخلص مجتمعاتهم من الأوضاع الناجمة عن أزمة الاستقرار السياسي كانت تحل محلها بالقهر العسكري والتعسف الجبايي، وظل شبح الخوف من الهلاك، والجوع، والفقر، والظلم والسجن، وشتى أنواع الكوارث طبيعية وغير طبيعية ملازما للفرد التادلي باستمرار. أمام عجزه عن مواجهة هذه التحديات والشور الطبيعية والبشرية، لجأ الفرد التادلي مثله في ذلك مثل أي فرد من المجتمع المغربي إلى الصلحاء.

فلماذا اللجوء إلى الصلحاء؟ وماهي المؤهلات التي تجعل منهم طرفا مقصودا؟ وبمعنى آخر، ماهي مصادر الحظوة والنفوذ الاجتماعيين التي كان يتمتع بها الصلحاء داخل المجتمع التادلي والتي أهلتهم لوظيفة تأمين حاجيات أفراده المادية والمعنوية؟

ثانيا: مصادر الحظوة والنفوذ الاجتماعي لصلحاء تادلا وآليات تخفيفهم من أزمة أفراد مجتمعاتهم

إن الحظوة الاجتماعية للصلاح تنطلق بالأساس من شهرتهم بالصلاح الديني طبعاً، هذه الشهرة التي تنبني بدورها على مؤهلات وأسس عديدة: مثل النسب الشريف والقدرة على منح البركة وامتلاك المعرفة بالعلوم الدينية، والكشف الصوفي وغيره من القدرات الخارقة، ثم التوافر على عصبية قبلية. والملاحظ أن هذه الأسس ترتبط فيما بينها ارتباطاً عضوياً وامتلاك واحد منها يؤدي إلى امتلاك الباقي.

¹ محمد الزبادي، دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب علي بن عبد الرحمن، م، خ، ع، بالرباط، رقم 390د، 70؛ محمد بن أبي مدين الدرعي، رحلة أبو مدين، م، خ، ع، بالرباط، رقم 297 ق (ضمن مجموع)، 268.

فالشرف مثلا يعد مصدرا للبركة، لأن مفهوم البركة كما جاء في تعريف الأستاذ محمد المنصور¹ قوة إلهية خفية يمنحها الله لمن اختاره من عباده وقربه إليه، إما عن طريق الولاية وإما عن طريق الانتساب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أقرب الناس إليه وبركته لا تعادلها "بركة". فالصالح الشريف تفيض على يديه البركات ويصبح الشافي من الأمراض، ومذهب القحوط وجالب للخير والنماء، وفي الوقت نفسه جالبا للنقمة حينما يقتضي الأمر الانتقام من ظالم، إذ لا شيء يصير مستحيلا في نظام البركة. حرص عدد كبير من صلحاء تادلا في هذا السياق على الالتئام للنسب الشريف، ولم يقتصر الأمر على الصلحاء ذوي الأصل العربي، بل الأمازيغ منهم أيضا كما هو الشأن بالنسبة للزواية التستاوتية، والصومعية، والخصالية. واكتفى صلحاء آخرون برفع نسبهم إلى أحد الخلفاء الراشدين، فقد اتقى الدلائيون إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وانتسب الشرقاويون إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إذن فإن رغبة الصلحاء في الاشتهار بالقدرة على منح البركة يعتبر عنصرا أساسا لفهم مدى حرصهم على الانتساب لآل البيت، لكن مع الإشارة طبعا إلى أن هذا الحرص كان نابعا في الوقت نفسه من رغبة وجدت تبريرا لها فيما أصبح للأشراف من سمو في المجتمع المغربي منذ وصول السعدين للحكم، مما جعل مفهومي الشرف والصلاح يندمجان في بعضهما البعض بكيفية متزايدة منذئذ، حتى أضحت الشرف علامة منقضية جوهرية يسعى كل الصلحاء للحصول عليها كانوا عربا أو أمازيغا. ولعل ما يدعم ذلك أن صلحاء تادلا في القرون السابقة للقرن 16م لم يتحلوا بهذه الصفة، فابن الزيات الذي ترجم لأزيد من عشرين صالحا تادليا عاشوا خلال القرنين 12 و13م، لم يشر ولو إلى صالح واحد شريف². غير أن هذه المؤهلات وحدها تظل ناقصة دون التوفر على

¹ محمد المنصور: مادة "البركة" في معلمة المغرب، 4/1182-1183.

² أنظر الجدول الوارد في أطروحتنا، 69-71.

عصبيات هامة عرقية كانت أو روحية، ثم إن الزوايا التبادلية التي كانت ذات عصبيات مهمة مثل الزاوية الحنصالية، والشرقاوية والدلائية، والرحمانية، والصومعية مارست نفوذا روحيا واجتماعيا قويا تجلّى مظاهره في :

أولا : أهمية حجم أتباعها ومريديها، واتساع مجال نفوذها الروحي جغرافيا، الذي تجاوز حدود منطقة تادلا وشمل مناطق عديدة من المغرب. بل منها ما امتد نفوذها الروحي خارج البلاد مثل الزاوية الحنصالية التي كان لها أتباع بالجزائر¹.

ثانيا : استمرار نشاط هذه الزوايا مدة زمنية طويلة، أي أن أتباعها ومريديها حافظوا على مكاتها. إذ إنه كلما توافرت هذه الزوايا على رصيد تاريخي هام، كلما ازدادت النظرة التقديسية لها من طرف العامة والخاصة².

وعلى العكس من ذلك، فقد ظل النفوذ الروحي والاجتماعي للزوايا التي لم تتوافر على عصبيات ضعيفا ومحليا لم يتعد مستوى تادلا، ولم يكتب لها الاستمرار التاريخي. كما هو الشأن بالنسب للعديد من الزوايا التي ظل اسمها مغمورا مثل : زاوية أكرض وزاوية فشتالة، وزاوية محمد بن داود الشاوي وغيرها. فكيف ساهم صلحاء تادلا في التخفيف من معاناة اللاتئين بحماهم؟ وماهي الأساليب التي وظفوها لتحقيق ذلك؟

1- دور صلحاء تادلا في التخفيف من آثار الجفاف بين الإطعام الفعلي والإطعام الروحي

سعى صلحاء تادلا أثناء فترات المجاعة والخصاص جادين في تقديم المساعدات للمحتاجين والمتضررين من الجوع والفقر، إما عن طريق تيسر سبل الحصول على بعض وسائل الإنتاج الأساسية مثل الماء، بعملهم على حفر الآبار والعيون. وقد اشتهر في

¹ Michaux bellaire " la zaouia d'Ahansal ", in: Archives Marocaines, vol27, 1927, p 95.

² انظر الجدول الوارد في أطروحتنا، 385.

هذا الصدد صلحاء الزاوية الشرقاوية، وأشياخ الدلاء¹. وإما بتقديم الطعام، فقد روت نصوص المناقب المحلية في هذا الإطار روايات توضح العناية الكبرى التي أولاها صلحاء تادلا وعلى رأسهم أهل الدلاء والصومعة وأبي الجعد وتأنمغت لعملية الإطعام، حتى أن الشيخ عبد العزيز بن موسى الواوزغتي صاحب زاوية تأنمغت اعتبر الإطعام زمن الجوع نوعا من الجهاد². وأشار صاحب "نشر المثاني" أن أهل الدلاء كانوا يطعمون بشكل لم يصل إليه أحد ممن تقدم في الحادي عشر أو قبله منهم³. ولقب الشيخ أبو عبيد الشرقي بين الصالحين بجاتم الطائي لشدة بذله وسخائه حسب تعبير يتيمة العقود الوسطى⁴، فقد بلغت هاتان الزاويتان إذن مبلغا كبيرا من كرم الضيافة ومن تنظيم عملية الإطعام. فقد عينوا أمناء وقيمين على هذه المهمة، وخصصوا أماكن من زواياهم لتهيئ الطعام⁵.

لم تكن المجهودات التي قام بها سائر الصلحاء التادليين في إطعام الطعام تخفي وجود إطعام محدود حسب الممكن، لا سيما عندما تتوالى سنوات الجفاف والمجاعة. وهو ما ظهر واضحا إبان أزمة 1005هـ/1012هـ/1666م مثلا، أو في موجة الجفاف الحادة التي عرفتها المنطقة سنة 1072هـ/1666م. حيث أعطى أصحاب الزوايا أهمية أكبر للتغذية الروحية على حساب التغذية المادية. صحيح أن التغذية الروحية تدخل في باب الزهد الصوفي، لكن الذي لا شك فيه أن الزهد وصل في هذه الفترة إلى مستوى التقشف المفروض على الجائع وصالحه في الوقت نفسه وهو ما يتضح من خلال الدلائل التالية:

¹ محمد العبدوني، يتيمة العقود الوسطى، ص 31؛ سليمان الحوات، البدور الضاوية، 63/1

² محمد الخليفي، الدرّة الجليّة، ص 360.

³ محمد القادري، نشر المثاني، 172/1.

⁴ محمد العبدوني، يتيمة العقود الوسطى، 71 المثاني، 172/1.

⁵ سليمان الحوات، البدور الضاوية، 175-176/1؛ محمد العبدوني، يتيمة العقود الوسطى، 275.

أولا : ظهور كرامات عديدة تفيد حصول البركة في الطعام وحصول الكفاية من القليل، فما كان يقدم في الأحوال العادية لعشرة أفراد يكفي لمئات الجائعين زمن القحط، وهو ما يسمى في الاصطلاح الصوفي "بتكثير القليل" كما حدث على يد الشيخ علي بن عبد الرحمان¹ والشيخ أبو عبيد الشرقي وأبي القاسم الصومعي، وأبي بكر الدلائي، وهم حاتميو زمانهم وقت الرخاء. أو كرامات إحضار الطعام من عدم، أو تحويل أشياء غير قابلة للأكل إلى طعام صالح ببركة الشيخ، فنبات الأرض ذو الطعم المر تجعل منه الكرامة غذاء طيبا حلو المذاق. وإذا لم يوجد ما يؤكل البتة، فبدعوة من دعوات الشيخ يصير الحصى دقيقا، فلما جاء أهل أوندون-وهي قرية مجاورة لأبي الجعد - شاكين ألم الجوع للشيخ أبي عبيد الشرقي قال لهم : "حجر بلدكم إن شاء الله دقيق فاطبخوه فلا يضركم، وكلخ بلدكم هو عوضا من قتاها فكلوه فلا يضركم منه شيء"². وبكرامة من كرامات الشيخ محمد بن مبارك الزعري التستاوتي في سنة من السنوات العجاف أعطت شجرة دقيقا خالصا!!³.

ثانيا : نظم صلحاء تادلا لأوراد جديدة في تلك الفترة بالذات، مع الحرص على تلاوتها مرات ومرات. وكلها لها علاقة وطيدة جدا بمقاومة الجوع، نذكر منها:

- 1- ورد الشيخ أبي عبيد الشرقي وهو حزب الشيخ الكبير، ويتكون من حزب الفلاح للإمام الجزولي وزيادات عليه من عند الشيخ⁴.
- 2- ورد أبي بكر الدلائي، وهو تكرر لا إله إلا الله، وغيرها من الأدعية مائة ألف مرة⁵.

¹ محمد الزبادي، دوحة البستان، 195، 190، 184 .

² محمد العبدوني، بتيمة العقود الوسطى 247.

³ مجهول، كتاب المحلي في مناقب سيدي محمد بن مبارك، م، خ، ح، رقم 726، و7-أ-.

⁴ أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية / 1 / 130.

⁵ سليمان الحوات، البدور الضاوية، 67/1.

3- ورد أحمد بن أبي القاسم الصومعي، وهو دلائل الخيرات، مائة ألف مرة من الأسماء، وصورة الإخلاص أربعون ألف مرة، والبسملة والهيللة سبعون ألف مرة يومياً¹.

4- ورد محمد بن محمد الدادسي الووزغتي، ويشمل مائة وخمسين ألفاً من الهيللة، وسبعين ألفاً من: اللهم يارب بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أجمع بيني وبين سيدنا محمد في الدنيا قبل الآخرة².

وجعل الصلحاء هذه الأوراد ذيولاً للأصول، وعكفوا مع رواد زواياهم على ترديدها. إيماناً منهم بأهميتها في تفرج الكرب وإبدال الضيق سعة، ولنسيان الجوع ولو مؤقتاً.

ثالثاً : ظهور كرامات غريبة على يد الشيخ أبي عميد الشرقي مؤداها أنه لم يجد ما يرد به على أحد جاءه شاكياً آلام الجوع سوى قوله إن الله سيخلصك منه، فحدث ذلك وتوفي الجائع وهو في حالة من الاطمئنان بقدره³. لعل هذا النموذج الأخير من الكرامات يدل دلالة واضحة على عجز الزاوية التام على توفير الغذاء المادي لللائذين بهم، فاكتمى شيوخها بتقديم صفات الصبر والتسليّة والتخليص المجازي للجائع ولو بالدعاء عليه بالهلاك. تماماً كما فعلوا في مكافحة الأمراض، والأوبئة الناجمة عن ظروف المجاعات، إذ قدموا لمن قصدهم صفات معنوية تارة، وفروا بهم من الأوبئة الموبوءة تارة أخرى، واستسلموا معهم للقدر وسموه مكتوباً في أكثر من مرة. فلما ضاقت زاوية أبي الجعد بكثرة الإصابات وعدد الوافدين المتأثرين بوباء الطاعون الذي عرفته البلاد في السنوات الأخيرة من القرن 15م اضطر شيخ الزاوية أبوعميد الشرقي إلى الرحيل عن زاويته

¹ محمد الإفرائي، صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، فاس، 1891، 22-23.

² محمد القادري: نشر المثاني، 3/60-61؛ محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، 197/2.

³ محمد الإفرائي، صفوة من انتشر، 26.

"برجال الميعاد" والتي عمرها منذ خمسين سنة أو ما يزيد، فرارا من مطاردة الوباء له ولأتباعه، ونزل بأبي الجعد الحالي متمنيا أن يكون هذا المحل محل يمن وبركة وسماه "أبوالسعد"¹، غير أنه لم تمض سوى سنة واحدة وتوفي الشيخ متأثرا بالوباء.

2- دور الصلحاء في تحقيق الأمن للفرد بين الحماية الفعلية والحماية المعنوية

ولدينا أمثلة كثيرة عن إسهام صلحاء تادلا في التخفيف من الصراعات القبلية، خصوصا بين قبائل الدير والجبال، إما بممارستهم دور الوساطة والتحكيم بين القبائل المتنازعة، أو بإشرافهم على عقد اتفاقيات وتحالفات بين هذه القبائل وعملهم على ضمان سريان مفعولها. مثل التحالفات المشهورة في المنطقة تحت اسم "تاضا" أو "طاطا" المعروفة بين بعض القبائل الأمازيغية باسم "تاكست" وتعني : الأمان. مما يساعد على تحقيق نوع من التكافل الاجتماعي والاستقرار ولو نسبيا. كما تشير نماذج كثيرة تشير إلى إسهام تادلا في حماية الأفراد من ظلم العمال المستبدين. إما بأسلوب الشفاعة والتوسط بينهم وبين المخزن ؛ ومن بين ما يؤثر في هذا الصدد أن الشيخ محمد الصالح الشرقاوي تشفع للقبائل التادلية التي ناصرته ثورة محمد العالم لدى المولى أحمد الذهبي بن إسماعيل - الذي كان خليفة ابنه آنذاك بالمنطقة - ونجح في كف يد العقاب عنهم². وإما بأسلوب منح فرصة الملجأ إلى حرم الزاوية سواء كان اللاجئون من أبناء المنطقة أو من بين أبناء بعض الأسر الحاكمة، فقد احترم السلطان المخلوع المولى أحمد بن إسماعيل سنة 1728م بالزاوية الحنصالية، فرارا من عقاب أخيه عبد الملك³. وهناك أمثلة أخرى على ذلك. كما لم يتوان صلحاء المنطقة في السياق نفسه عن تسديد النصح للحكام ونهيبهم عن التماهي

¹ أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، 86-85/2.

² الحسن الهداجي، الروض الينع، 151.

³ محمد القادري، نشر المثاني، 301/3 ؛ محمد أكنسوس، الجيش العرمزم، 161-162/1 ؛ أحمد الناصري، الاستقصا، 120/7.

في إلحاق الأذى بالرعية، فقد وجه الشيخ أحمد بن عبد القادر التستاوتي- شيخ الزاوية التاستوتية - للمولى إسماعيل رسالة اشتهرت برسالة "المهدوية" انتقد فيها بشدة وجرأة كيرتين سياسية المولى إسماعيل المالية والاجتماعية ووصفها بالجور والتعسف¹. كما وجه إلى قائده عمر بن حدو الريفي² الذي كان مرابطا للجهاد بالثغور الشمالية، رسالة يحذر فيها من مغبة تماديه في فرض "السخرة" على أبناء منطقة تادلا³. كما توجد امثلة عن إسهام زوايا المنطقة في تأمين الطريق للتجار، إما بممارسة عملية الحفارة ومساعدة التجار على اجتياز الأماكن المخيفة. أو بتوفير المأوى لهم إما داخل زواياهم الفرعية المنبثة على امتداد الطريق التجاري⁴، أو داخل فنادق أسسوها لهذا الغرض كما هو شأن فنادق الشرقاويين لأبي الجعد.

أما حين يعجز الصالح عن تقديم هذه الخدمة الأمنية، لاسيما إبان استفحال أزمات انعدام الأمن، فإن المجال يفسح على مصراعيه للكرامة التي توظف أحسن توظيف للانتصار على الظلم بكل أشكاله وأيا كان مصدره. وتستعمل الكرامة لذلك عدة أساليب رمزية للانتقام من الظلم: الدعاء المستجاب، الرؤيا الصالحة، استحضر بعض القوى الخارقة كالجن، وقد يكتفي الشيخ أحيانا بمجرد إلقاء نظرة على اللصوص وقطاع

¹ أحمد التستاوتي، زهة الناظر وبهجة الغصن الناضر، م خ، خ ع بالرباط، رقم 1302 د، و 44-ب-45-ب.
² من كبارقواد جيش المولى اسماعيل، ينتسب إلى بطوية، كان ينوب عن المولى اسماعيل في منطقة الغرب، وهو الذي قاد الجيش المغربي في تحرير طنجة والمعصورة والعرائش، وكان مركز قيادته بالقصر الكبير، توفي بالطاعون سنة 1092هـ/1680م، ودفن بمكناس. تشير بعض النصوص المناقبية أن سياسته اتسمت بالشدة والعنف، ترجم له الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، ج. 2، ص 167، محمد القادري، نشر المثاني، 295/2؛ أحمد الناصري، الاستقصا، 64/7 عبد السلام القادري، كتاب المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد، طبعة حجرية فاس، 1932، 87.

³ أحمد التستاوتي، زهة الناظر، و 55-ب-56-أ-

⁴ الحسن الهداجي، الروض اليانع، 167.

الطرق ليتوقفوا عن فعل السرقة، وقد لا يتجاوز الأمر أحيانا سوى ذكر اسم الصالح لإبعاد خطر اللصوص. وتتعدد أنواع الكرامات بهذا الصدد الذي لا تعبر في واقع الأمر. سوى عن رغبة واعية لدى الفرد التادلي كان منتجا للكرامة أو مستهلكا لها في تجاوز أزمة حلت به وعجز عن تجاوزها بالفعل الملموس. والأزمة هنا هي الخوف وانعدام الأمن.

ثالثا : ماذا استفاد الصالحاء ؟

يمكن حصر وجوه استفادة الصالحاء في العناصر التالية:

1- الثراء المادي

إذا كان حضور الصالح في المهام الآتفة الذكر بالغ الدلالة، فإن موارده ومداخيله من ذلك أمر مسلم به. إذ إن تعدد وظائفه ومهامه يؤدي بالضرورة إلى تعدد الواجبات المستحقة له، في شكل فتوحات، أو زيارات، أو هدايا، أو صدقات، أو زكاة وغيرها، وهي بالرغم من اختلافها، فإنها لا تعدو في نهاية المطاف، أن تكون ترجمة لما يقدم للزاوية من موارد عينية أو نقدية، يعبر الأتباع بواسطتها عن اعترافهم وتعلقهم بالشيخ، وإقرارهم لبركته في الحرث والماشية وسائر انشغالاته الدنيوية والدينية، وهي بالنسبة للزوايا نوع من الاستثمار للكرامة والبركة¹. فقد كان أهالي تادلا، كما في غيرها طبعا، عندما يحملون مشاكلهم لصلحاءهم يحملون معها مقابلا لها من الهدايا. كما تدل على ذلك النصوص التالية: فقد جاء في البذور الضاوية، أن أهالي قرية أكرض بدير تادلا أصابهم الجذب مرة حتى جف واد أم الربيع، فنصحهم أحد أتباع الشيخ أبي بكر الدلائي بزيارة هذا الشيخ في زاويته إذ إن دعوته مستجابة بشرط ألا ينسوا الوعدات وهي نوع من الفتوح². وروى محمد المنالي في باب كرامات الشيخ على بن عبد الرحمان، أن بعض

¹ عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، 215.

² سليمان الحوات، البذور الضاوية، 62.

أتباعه الرباطيين لما أراد الخروج لزيارة هذا الشيخ (...) سمعت به امرأة فأرسلت معهم شيئاً من الصدقة مع ابن لها وقالت له بلغ الشيخ (...) مني السلام، وقل له : إن لي ابناً في بلد النصارى يدعو الله أن يجمعني به". كما كان أهالي دكالة في السياق نفسه يصلون شيخهم أبو عبيد الشرقي بكمية مهمة من الفتوحات "بلغت مرة واحدة سبعين قنطاراً من السمّن". ناهيك عما كان يرد إلى زاويته من فتوحات تادلا والشاوية والتي لا يعلمها إلا الله حسب تعبير صاحب المرقى¹. هذا دون ذكر هدايا نهاية كل موسم زراعي مثل: "التعركية"² "الدرسة الأخيرة" و"المد الأول"³. كما استفادت زوايا تادلا أيضاً من الأحباس والأوقاف التي أوقفها عليها "القبائل الخدام" كانت في الغالب عبارة عن أراضي فلاحية وسواق للمياه كما يتضح من النموذج التالي حيث استفادت الزاوية الفشتالية بدير تادلا منذ تأسيسها إلى يومنا هذا من الأوقاف التالية:

نوع الوقف	الواقف
أراضي زراعية وما يلزمها من ماء للسقي	قبيلة فم العنصر
نفسه	قبيلة فرياطة
ماء وادي درنة لمدة 24 ساعة خلال كل أسبوع	قبيلة آيت حبيبي
ماء ساقية تازروالت لمدة 24 ساعة خلال كل أسبوع	قبيلة آيت أحمد بتاكريرت
نصيب من ماء عين أسردون	قبيلة أولاد دريد

¹ عمر العروسي، المرقى، 500.

² "التعركية" المصطلح مشتق من فعل "عرقب" ويقال عرقب الرجل الدابة إذا قطع عرقوبها، أي عصب رجلها. وجرت العادة في المغرب أن يلجأ الناس إلى قطع عصب الرجلين الأماميين للثور (في الغالب) في مناسبات خاصة ترتبط "بطلب الشفاعة" أو "طلب العار" وترمز الدابة المعرقة، وهي منحنية إلى الأمام، إلى وضعية الخضوع التي يوجد فيها المستجير أو طالب العار، وإلى إقراره بالضعف والغلبة وبالتالي إلى حاجته إلى الحماية والمؤازرة التي ينتظرها من جهة قادرة على تلبية رغبته. انظر محمد المنصور، مادة "التعركية"، في معلمة المغرب 2411/7.

³ معلومات مستقاة من التحريات الميدانية، زدنا بها أحد أبناء الزاوية الفشتالية، المدعو الحاج السملالي محمد بتاريخ 12-4-1998.

إضافة إلى إعفاء أراضيها من الضرائب. وقد وقفنا على رسائل وظهائر مخزنية لدى زوايا عديدة من المنطقة¹، تؤكد استفادتها من هذا الامتياز المخزني ويرتبط هذا بشكل أساسي بسياسة "المصانعة" أو "المدارة" التي نهجها المخزن مع زوايا تادلا، وخصوصا زوايا الدير، قصد استغلال نفوذها الروحي والاجتماعي من أجل ضبط تحركات القبائل الجبلية نحو السهول، أو من أجل الضغط على قبائلها وإرغامها على الطاعة، كما هو الحال بالنسبة للزاوية الحنصالية مع قبائل أيت عطا.

لم يكن تقديم الأتباع أو "القبائل الخدام" الهدايا للصلحاء، "القبائل الخدام" دائما تلقائيا. بل كان مفروضا أحيانا، مع تحديد نوع الهدية وقيمتها. فقد اشترط الشيخ محمد الصالح على القبيلتين اللتين اقتتلتا مقابل الشفاعة لدى السلطان أحمد الذهبي عشرين كبشا صدقة². وفرضت الزاوية الفشتالية مقابل إشرافها على عقد تحالف بين القبائل المجاورة لها، احترام أملاك زاويتها والتبرع عليها بمجموعة من التبرعات "ويتبرعون لزاويتنا بالعادة³ ومد لكل زوج نصفه شعير ونصفه في الحرث والحصاد⁴. ووصلت بعض التجاوزات في تحصيل الموارد إلى حدود التسلط على ملك الغير دون مبرر. مثال ذلك ما جاء في "الروض اليانع" من تسلط أحد أبناء زاوية أبي الجعد في ناحية تالمغت على قبيلة و"قبض" نحو المائتين من الغنم وجذعا من الخيل وفضل الله عليه كثير⁵. فمكنت هذه الموارد المتعددة والمتنوعة مهما كان مصدرها، مع استثمارها بخدمات مجانية ساهمت في تراكم ثروة مادية لدى معظم زوايا تادلا. كما هو شأن الزاوية الشرقاوية، والزاوية الرحمانية، والصومعية، والحنصالية⁶.

¹ انظر أطروحتنا 316-317 وملحقها الوثائقي.

² الحسن الهداجي، الروض اليانع، 137.

³ تنفيذ معنى الهدية أو الفتح.

⁴ وثيقة خاصة.

⁵ الحسن الهداجي، الروض اليانع، ص. 130.

⁶ للمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة يمكن العودة إلى الفصل الثالث من الباب الثاني من أطروحتنا، ص. 2011-235.

2- تنامي قوة نفوذهم الاجتماعي

لا يمكن حصر ذلك في كثرة الأتباع الذين كانوا يشملون عادة قبائل عديدة، سواء داخل تادلا أو خارجها فحسب وإنما بما كان يوفره هؤلاء الأتباع للزاوية وصالحتها من قوة بشرية واقتصادية، الأمر الذي جعل الصالح بمثابة "سلطان جهوي" إن صح القول. فانضاف النفوذ السياسي للصلحاء إلى النفوذ الروحي والاجتماعي. بل نجح بعضهم - صلحاء الدلاء- في إقامة إمارة سياسية إبان الأزمة التي أعقبت وفاة المنصور السعدي، كما هو معروف.

وهكذا ظلت بادية تادلا وقبائلها ظلت مجالا خصبا لتبلور نشاط الجهاز الصوفي، ربما لوجود هذه القبائل بعيدة عن مقر السلطة المركزية، بالمقارنة مع المدن والمدن العواصم، مما أعطى لهذا الجهاز حرية التعامل بتأمين حاجيات أفراد هذا الوسط، ومساعدتهم على مواجهة مشاكل الخوف من الطبيعة والإنسان والغيب، خاصة أن تادلا كانت من أكثر مناطق المغرب حساسية خلال هذه الفترة، باعتباره أولا نقطة وصل بين مراكش وفاس، وأيضا نقطة اتصال بين سكان الجبال الأمازيغيين، وسكان السهول المستعربين، وهي في الآن نفسه منطقة تكامل اقتصادي مشتركة بين نمطين من العيش: الترحال والاستقرار. ثم إن ما كان يتمتع به صلحاء هذا الوسط من حظوة اجتماعية، وما كانوا يمتلكونه من رأسمال رمزي أسهم بطريقة غير مباشرة في تراكم ثرواتها المادية، يعيدون توزيعها خصوصا أوقات الحاجة -في إطار خدمات اجتماعية واقتصادية عديدة، مثل: الإطعام، والإيواء، والتعليم، مما يساعد في تنامي ذلك "الرأسمال الرمزي" ويضمن استمراره. وهكذا لا يمكن الفصل بين "الرأسمال المعنوي" والرأسمال المادي في المسار التاريخي لزوايا هؤلاء الصلحاء!!

المصادر والمراجع

- أحمد التستاوتي، نزهة الناظر وبهجة الغصن الناضر، م خ، خ ع بالرباط، رقم 1302 د، و44-ب-45-
- محمد الخليلي، الدرّة الجليّة في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، رسالة لنيل (د.د.ع) في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، 1986، (مرقونة)، ص. 354.
- عبد السلام القادري المقصد الأحمّد في التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد، طبعة حجرية فاس، 1932.
- عبد الله بن عمر العياشي، الاحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية ايت عياش، م، خ، خ.ع. بالرباط رقم: 1433 د (مصور عن الميكرو فيلم). 257.
- مجهول، كتاب المحلي في مناقب سيدي محمد بن مبارك، م.خ، خ ح، رقم 726، و7-أ-
- محمد الإفرائي، صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، فاس، 1891.
- محمد الزبادي، دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب علي بن عبد الرحمان، م خ، خ ع، بالرباط، رقم 390د، ؛ محمد بن أبي مدين الدرعي، رحلة أبو مدين، م خ، خ ع، بالرباط، رقم 297 .
- محمد القادري نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق أحمد التوفيق ومحمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1986.
- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى- تحقيق أحمد الناصري، أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق]، الرباط: منشورات وزارة الثقافة والاتصال، ط.1، 2001

المراجع باللغة الأجنبية

- Mechaux bellaire "la zaouia d'ahansal", in: archives marocaines, vol27, 1927.
- Rosemberger et Triki, "famines et épidémies au Maroc au VI- XV", in Hespéris-Tamuda, Vol, XV, 1974.